مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية
Available online at https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/65
ر ت م د: 1112-685x
ر ت م د إ: 2588-2236
المجلد: 16 / العدد: 02 / جانفي 2024
ص ص: 143 ـ 155

الهجنة ومفاهيم الهوية
أسئلة التجاور والتداخل

Hybridization and concepts of identity
Questions of mutual closeness and overlap

عبد الله عبان*
جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي
تبسة / الجزائر
Abdallahabbane@univ-tebessa.dz

تاريخ الارسال: 2023/07/09 تاريخ القبول: 2024/01/08 تاريخ النشر: 2024/01/20

الملخص:

إن موضوع الهجنة وقضية الهوية من الموضوعات الحداثية؛ التي لقيت اهتماما من الباحثين في الدراسات النقدية الحديثة، فهو قد عرف على المستوى العربي أو العالمي، وكانت تيمة الهوية من أهم المواضيع التي يمكن الحديث عنها في ظل ظروف التغيرات الجيوسياسية والثقافية لاسيما مع ظهور العولمة، فمعها بات مصطلح الهوية هلامي، إذ تعدّدت دلالاته أو بالأحرى أصبحت لانهائية مؤجلة على حد قول "جاك دريدا"، بحكم التداخلات والتبادلات الثقافية مع الآخر، التي انبرى عن الهوية الوطنية؛ هويات ثقافية هجينة.

ونحن هنا بصدد التركيز على الهوية كمصطلح في إطار الهجنة الثقافية، من خلال تتبع هذين المصطلحين ومحاولة تقديم تعريفات لهما سواء في المعاجم والقواميس أو عند النقاد.

الكلمات المفتاحية: الهجنة، مصطلح الهوية، الهوية الثقافية، الهجين، الهويات الهجينة

Abstract:

Hybridization and identity are among the modernist topics that have been discussed in recent critical studies. The theme of identity is also one of the most important topics that can be talked about in light of the conditions of geopolitical and cultural changes, especially with the advent of globalization. Rather, it becomes a deferred infinity, according to the words of "Jacques

* المؤلف المرسل.

Derrida", by virtue of the cultural interactions and exchanges with the other, so hybrid cultural identities have been emerged from the national identity.

Here, we study identity as a term within cultural hybridization. We try to define the two terms, whether in dictionaries or among critics.

Key words: Hybridization; Identity term; Cultural identity; Hybrid; Hybrid identities

مقدمــة:

في ظل الفتوحات الجديدة للعولمة، وفي ظل خطاباتها التي تنطوي على مفعولات ثقافية/ حضارية مربكة، يتحرك العالم عبر جينالوجيا مبهمة المعالم؛ جينالوجيا باتت تشكل نمطا ثقافيا متوترا، ينم عن نظام من العلاقات مهزوز البنية والمرجع، تنشأ في ظل هذه العلاقات تصورات إدراكية/ ذهنية غير بريئة لمفهوم الآخر؛ الآخر الذي يسكن العالم والمتخيل معا. ولقد نعترف هنا بثقل الدور التاريخي لمفعولات الثقافة وتراكماتها العميقة، لكننا نقر في الوقت نفسه بضرورة ابتكار فعل مقاومة مزدوج الآليات؛ مقاومة مخصوصة بانتشال الذات من عوائق الانسداد التاريخي، ومقاومة أخرى مخصوصة بالذهاب نحو الآخر قراءة وفهما.

مؤدى هذا الكلام، أن التحولات الحاصلة على جميع المستويات، ولاسيما الثقافة في ظل التبادلات وكسر الحدود الفاصلة بين المجتمعات، بالإضافة إلى بروز العولمة والتطور في وسائل التكنولوجيا الحديثة، قد مكن الهيمنة الاستعمارية الثقافية من امتلاك استراتيجيات جديدة من خلال التستر والتخفي وراء أفكار مقنعة (العولمة، التبادل الثقافي،... وغيرهما) واتخاذهما كوسيلة لفرض السيطرة، ومحاولة طمس هوية الآخر، واتباع طرق منطوية سعيا لذوبان الآخر فيها، بجعله تابعا لها وهي مركز الكون.

في ثقافتنا العربية الحديثة والمعاصرة، ظل سؤال الذات والآخر يتردد بأكثر من صيغة، وفي أكثر من مجال معرفي وإبداعي، منذ القرن التاسع عشر وإلى حدود مطلع الألفية الثالثة، ليتصدر -تبعا لذلك- شواغل الفكر العربي، فيتمثّل إحدى إشكالياته الجوهرية الثابتة على مدى تاريخه الحديث والمعاصر، باعتبار تعدّد المخاطر التي واجهت الهوية القومية من الخارج، وتمثلت في أشكال هيمنة الاستعمار الأوروبي على الأقطار العربية، ومحاولات التفتيت من الداخل، وقد تجلّت في النعرات القبلية، والفتن الطائفية، والخلافات الإيديولوجية والسياسية التي أسهمت في إخفاق المشروع القومي العربي، ثم إحداث شروخ في الذات العربية ما انفكّت تزداد عمقا واتّساعا في ظل العولمة[1] لقد أفضى هذا الشرخ إلى بروز هويات هجينة

لا تنتمي لمرجعيات صلبة، ولا إلى نماذج ثقافية محررة، فأصبحت بدل الهوية هويات مركبة ومتعدّدة، وهي هجينة في الوقت نفسه، أي أنها ذات خليط ثقافي/ هوياتي مرتبط بمزاج مشتت من التفكير، وبعقائد مرنة ذات رمزيات بالغة في التعقيد. نتصور هنا مفهوما أوليا للهجنة يفيد بتمازج واختلاط الثقافات، ومحاولة للتوفيق بين نماذجها، تبعا لذلك، نتساءل:

- ما مفهوم الهجنة؟ كيف كانت تجليات هذا المفهوم في إطار التغيرات والعولمة؟
- ما مفهوم الهوية؟
- كيف عرّف النقاد مصطلحي الهوية والهجنة؟
- كيف تجلى مصطلح الهوية في إطار الهجنة الثقافيّة؟

1. مفهوم الهُويّة:

أ. في المعاجم والقواميس:

لقد تعدّدت وتشعبت مفاهيم الهوية، نظرا لاختلاف الرؤى والمشارب الفكرية، فكل ينظر لها من زاوية رؤاه ومرجعياته الفكرية الفلسفية الاجتماعية وحتى الثقافية، بحكم أن الهوية كمصطلح ظل ينبثق من علوم عديدة ومجالات متنوعة كالفلسفة وعلم الاجتماع، والدين والأدب...إلخ. مبدئيا، فإن الهوية« تعتبر من مفاهيم العلوم الاجتماعية وعلم الاجتماع الثقافي على وجه الخصوص وهناك خلافات كثيرة حول تعريفها من مفاهيم العلوم الاجتماعية وقد تناول ذوو الاختصاص جوانب متعددة في تعريفها. وقد اقترح العلماء مستويات متعدّدة للهوية من مختلف المجالات.»[2] ومن هذا المنطلق، فإن الهوية من المفاهيم المبثوثة في ثنايا المعارف/ النماذج المختلفة، وإذ هي كذلك، فهي ذات مفهوم متشعب لا يمتلك تعريفا صلبا، بل تعرف وفق خصائصها ووظائفها، لأن تركيبتها البنيوية كمفهوم ناجز في الثقافة، لا يمنحها إطارا صلبا من الحدود الدلالية الواضحة، فدلالاتها تعلق بنماذج خارجية متحيزة للثقافة والإيديولوجيا، بل وبمشروطيات النموذج المعرف لها. يبقى هذا التصور صحيحا إلى أبعد حد، فالهوية مفهوم هلامي لا يملك صيغة نهائية ناجزة، بل هو مركب يلتقط مركبات إضافية أخرى تخرجه من دائرة العموم وتدخله في فضاءات محددة للاستعمال والتداول.

أما المعاجم، فقد اختلفت بدورها حول مفهم الهويّة؛ سواء بالنظر إليه في البيئة (الغربية)، أو في بيئة (العربية)، وعليه حاول كل منها تقديم تعريفات له، وعليه نعرض بعضا منها على النحو الآتي: فإذا عدنا إلى (موسوعة لالاند الفلسفية) لصاحبها أندريه لالاند"

(André Lalande) نجده يربطها بالزمكنية؛ إذ يرى «أن للهوية عدة معان مختلفة من بينها: سمة موضوعين فكريين، متمايزين في الزمان والمكان، لكنهما قد يتسمان معا بالصفات عينها، هذا المعنى يشار إليه عادة باسم هويّة كيفية أو نوعية، خاصة.» [3] ومنه، فالهوية هنا ترتبط بخاصية موضوعين فكريين يختلفان في الزمان والمكان، غير أنهما قد يكون لكليهما الصفات نفسها، وهو ما يعرف بالهوية الكيفية أو النوعية.

ومن جهة أخرى، يذهب أيضا أصحاب (المعجم الفلسفي) في تعريفهم للهوية انطلاقا من عدّها الخيط الرفيع الذي يميز الشيء عن غيره، فيقول في هذا الصدد:« حقيقة الشيء من حيث تميزه عن غيره وتسمى أيضا وحدة الذات.[4]»وبالتالي، فالهوية تحيل إلى أصل الشيء وحقيقته التي من خلالها يتميز عن غيره، فاختلافه عن الآخر فيه اثبات لذاته، فالهوية هنا هي مقدار التطابق مع حقيقة الشيء، وليس في تفسيره.

يرتبط الحديث عن الهوية، بالحديث عن الشخص بعينه وميزاته وخصوصيته، وأيضا الجماعة التي ينتمي لها هذا الفرد، فهي تعبير عن ذاته وكيانه الشخصي، واختلاف هذا الشخص عن الجماعة هو في حد ذاته اثبات لهويته هذا ما ذهب إليه كل من "محمد سبيلا" و"نوح الهرموزي" بقولهما:« فالهوية -بهذا المعنى- هي وحدة الشخص (أو الجماعة)، وما يجعله هو نفسه، أو هوهو؛ أي ما يجعله مطابقا لذاته، وما يمنحه استمرارية في الزمن، فهما يخص الشخص أو الجماعة، وما يميزهما أيضا.» [5]، فهما هنا يربطان الهوية بالذات أو هي ما يجعله مطابقا لهذه الذات، سواء كانت ذاتا فردية أم جماعية، عبر فترات زمنية مستمرة.

وعلاوة على ذلك، يعرفها "جلال الدين سعيد" في (المصطلحات والشواهد الفلسفية) وذلك من منطلق الحديث عن الاشتقاق اللغوي لهذه اللفظة، حيث أنه يرجعها إلى الهُو إذ يقول في هذا الإطار:« لفظ الهوية مشتق من الهُوَ كما تشتق الإنسانية من الإنسان. وهوية الشيء هي عينيته وتشخّصه وخصوصيته التي ندركها بالجواب عن السؤال "ما هو؟ » [6] أي أن الهوية هي تلك الخصائص والمميزات الخاصة بالشيء أو بالأحرى بالفرد او الجماعة ويمكن إدراكها من خلال الإجابة عن السؤال المطروح ألا وهو "ما هو"؟.

وما يمكن استنتاجه من التعاريف التي قدمتها المعاجم لهذا المصطلح ، وبعدّ الهويّة مفهوما له جذوره المتأصلة في القديم، يتبين انا أن هذا المفهوم متشعب الأصول، متحول الدلالات، فهو لا يعرف في كونه مفهوما ناجزا، بل في كونه تعبيرا عن خصوصية ما ذات سمات وجودية/ ثقافية/ نفسية متباينة، هذه الخصوصية أعطت للمفهوم قدرة في التحول جعلته

في منأى عن كل محاولة تعريف، فلقد ارتبط هذا المفهوم في الدرس النقدي بمفهوم النص في حد ذاته، فالبحث في هوية النص لا ينفي إمكانية تقصي النواحي الجمالية والسمات الفنية له، وهذه السمات أو الخصائص هي التي تمنح له شكلا هوياتيا ما، فيصبح النص متفردا بنمط معين من العلاقات ذات المنحى الترابطي، وهذا في تقديرنا ما يمنح قدرة النص في التميز على نصوص أخرى، بمعنى أن لكل نص هوية مخصوصة به؛ هذه الهوية نابعة من جسده اللغوي، وطاقاته الدلالية/ الثقافية المخصوصة.

ب. عند النقـاد:

تداخلت واختلفت مفاهيم الهوية، فإضافة لكونها مقابلا عربيا للمصطلح (Identite) الغربي الأصل والمنبت، فهي تعبير عن تلك البيئة، وتلك المجتمعات، بيد أنها شهدت اختلافا وتمايزا بين فلاسفتها ودارسيها، نظرا لاختلاف المرجعيات الفلسفية والابستيمولوجية والفكرية والثقافية لأصحابها.

ومن هذا المنطلق نجد "المهدي عثمان" يعرض للمفهوم الذي قدمه "سالم الحداد" الذي يرى أن الهوية ظاهرة إنسانية ملازمة للكائن البشري - فردا أو جماعة - تكون ضامرة في حالة كمون في الظروف العادية الخالية من التوترات.. غير أنها تخرج من طور الوجود بالقوة إلى طور الوجود بالفعل عندما يستفزها الآخر. فالأنا الفردية أو الجماعية ترفض التماهي فيه. وحتى الأنا متمايزة فإنها تعود - في الظروف الصعبة - إلى ذاتها تستكنه جوهرها وتستحضر مخزونها وتحلل واقعها وتستشرف مستقبلها. واعتمادا على كل ذلك تتحدد خصائصها التي تتميز بها عن الآخر. وقد أشار سالم حداد إلـنقطة مهمة جدا تجعل للهوية مفهومها الزئبقي والتغيري. وذلك أثناء حديثه عن تحوّلها من "حالة سكون" إلى "طور الوجود بالفعل" أي أن للهوية أقنعتها التي بها تتخفى لتظهر دون سابق إعلام[7] بمعنى: أن الهوية مفهوم خام لا يعرف عن نفسه إلا بأدوات محددة، وبأشكال تعبيرية / إيحائية معينة، وبأنماط ثقافية/ إيديولوجية غير بريئة، تتحدد سماتها انطلاقا من تميزها عن الآخر صورة ومضمونا، فكما قد تظهر الهوية، فهي تتخفى وتضمر. فالأنا الفردية أو الجماعية ترفض الذوبان في الآخر والانسلاخ، لهذا تحاول الدفاع من خلال ما يميزها عنه. وبالتالي، فإن« الهوية تتحدد عنده - سالم حداد- "انطلاقا من الخصائص والسمات المميزة للأمة والفاعلة فيها، والتي انتهت إليها عبر مسيرتها الجدلية في التاريخ. من خلال تعاملها مع المحيط: طبيعة وبشرا، كاللغة والتاريخ والدين

والثقافة والقيم والتقاليد. وتشكل هذه العناصر مجتمعة الأرضية النّفسية للأمة والتي تشترك في هذه المقومات وبها تتمايز عن الآخر وربما بها تحارب ومن أجلها تحارب.» [8] وما يلاحظ هنا أن هذا التعريف قد أدرج محددات الهوية على أنها الهوية نفسها، وهذا ما لا نقبله، فالهوية نظام سيميائي غير مرئي من التفاعلات الحضارية والفكرية، وجهاز منتظم من الحقائق التاريخية، لكن انتظامه لا يظهر لمستعمليه، وإلا فقد حقيقته الكامنة، بل ينتج نوعا من الحقائق لا تستنفذ مفعولها من طرق التوظيف المتعددة لتلك المحددات، فتبقى تظهر عبر حقب تاريخية متلاحقة بشكل تدافعي رمزي يعيد تشكيل طبقة حضارية وهوياتية جديدة في كل مرة بشكل مختلف.

كما تجدر الإشارة هنا، إلى التعريف الذي قدمه "علي حرب" فهو يرى أن الهوية ليست ما نذود عنه وما يعلق بذاكرتنا؛ وإنما هي تتمثل في إنجازاتنا التي تثبت وجودنا بالعالم، وفقا لعلاقاتنا بالآخرين ومعرفتنا بهم وهو ما يؤكده، قوله:« إن هويتنا ليست ما نتذكره ونحافظ عليه أو ندافع عنه. إنها بالأحرى ما ننجزه ونحسن أداءه، أي ما نصنعه بأنفسنا وبالعالم من خلال علاقتنا ومبادلاتنا مع الغير » [9] يفهم من قول علي حرب، أن مفهوم الهويّة يرتبط بشكل أساس بحركة الدفع المستقبلية وما تنتجه هذه الحركة من قيم ذهنية / إدراكية ترسخ وجودنا داخل حيز نفسي/ جغرافي/ ثقافي، لكنه وجود لا يرجع إلى الخلف، بل يسعى إلى ابتكار مساحة انوجاد جديدة بهدف الاقامة داخل العالم، أو الاقامة في العالم: إقامة مخصوصة بنموذج لا يعيد طرح الأسئلة القديمة، بل يفكك باستمرار ما علق به من ترسبات، ويعيد موضعتها في سياق فكري/ حضاري جديد.

ولنبادر بالقول بأن الهوية وإن كانت متعددة التعريفات والدلالات، فإن المقصود بها في هذا السياق هوية المجتمع المنسحبة على أفراده وهي المحصلة لمجموعة الخصائص المميزة للشخصية الاجتماعية، تلك الشخصية التي تستمد خصوصيتها من تفاعلها مع محيطها الطبيعي والبشري وتجربتها التاريخية ورصدها الثقافي والحضاري ووعيها بقضايا الحاضر ورؤيتها لآفاق المستقبل. [10]

وحسب "صالح السروي" فإن« التصور الأصولي نفسه يقتضي أن تكون الثقافة الوطنية ومن ثمّ الهوية الوطنية ممثلين برؤيتين لما يعرف بـ... "ثوابت الأمة" التي لا يجوز المساس بها، وكأن هذه الثقافة تمثل كلا مصمتا خاليا من التفاصيل ومطلق الكمال والحضور عبر الأزمان، وذلك من حيث ارتكازها على مسلمات مقدسة، كالدين وما ارتبط به من انساق

قيمية وروحية، والوطن وما ارتبط به من تصورات تعميمية لدلالاته المعنوية والنفسية.»[11]
وبما لا يدع مجالا للشك، أنّ الثقافة والهويّة لهما علاقة وطيدة، فلا يمكن أن تقوم ثقافة مجتمع ما بلا هويّة، ولا أن يكون لهذا المجتمع هويّة نابعة عن ثقافته الوطنيّة.

ويضيف "صالح السروي" متحدثا عن إمكانية أن تكون الهوية مغروسة عند الانسان والأفراد بشكل جيني، إذ يقول وفق هذ المنظور« أن الهوية ليست مركبة فينا على نحو وراثي (جيني)؛ بل هي مكتسبة؛ حتى إن الجنس – النوع من ذكر وأنثى – يكتسب دلالات مغايرة حسب المعطى الثقافي الذي ينشأ الفرد في إطاره؛ وهو ما يؤدي إلى إمكانية تحول هذه النظرة إلى النوع إذا تغيرت المعطيات الثقافية المولدة لها.»[12] وحسبه -صالح السروي- فهو يرى أن الهوية مكتسبة وليست فطرية في الانسان، إلا أننا نعتقد أن الجانب الفطري مهم جدا ولا يمكن إلغاؤه، فالهوية في نظرنا لها تشكلات ضمنية/ أنثروبولوجية متشبثة ببنية الإنسان العميقة. صحيح أنه بمقدورنا ابتكار نماذج معينة نصهر بها مكونات هوياتية متعددة، إلا أن هناك جذرا هوياتيا يقبع في تلك البنية بخصائص معينة لا يمكن زحزحته، فهو نظام فطري متأصل ولا يمكن تزييفه أو تغييره، حتى وإن تغيرت الدلالات الثقافية لواقع هذا الإنسان ووجوده فيما بعد.

ولعله من المفيد التأكيد، أن الهوية« ليست كائنا طبيعيا هبط من السماء، بل الهوية تتكون على مر العصور وعلى مشارب فكرية متعددة.»[13]،بمعنى أنها تتشكل نتيجة تراكمات عبر فترات وعصور مختلفة، انطلاقا من مرجعيات فكرية متعددة ومتنوعة. واستنادا لذلك، فإنّ الهوية « هي مجموعة من القيم والمشاعر والاتّجاهات تميّز جماعة ما، أو شعبا ما أو أمّة ما وتضمّ هذه الهوية اللغة والدين والتاريخ والعادات والتقاليد التي نشأ عليها المجتمع وورثها عن أسلافه وفيها الثابت والمتحوّل.»[14]وهنا يمكن القول، أن الهوية بمفهومها المادي أو المعنوي تمثل كتلة من الثوابت بالنسبة لمجموعة اجتماعية ما باعتبارها مبادئ تسير وفقها ولا يمكنها التخلي عنها؛ كاللغة والدين والتقاليد والعادات التي تربت عليها وورثتها عن أجدادها، فمنها الثابت كالدين واللغة، والمتحول؛ كالعادات والتقاليد التي يمكن أن تتغير بمرور الزمن، وتتطور بتطور المجتمعات وازدهارها.

2. الهجنة وقضية الهوية:

يعد مفهوم الهجنة من المفاهيم التي انتشرت في حقل مهم من حقول المعرفة المعرف الإنسانية، ألا وهو حقل الدراسات ما بعد الكولونيالية ومعها تمازجت الثقافات والمجموعات البشرية، وهذا المفهوم عرفه العديد من الدارسون كل وفق وجهة نظره ورؤاه ومرجعياته، إذ نجد (قاموس النظرية الثقافية والنقدية) لصاحبه "مايكل باين" يضع مصطلح الهجين للمقابل الإنجليزي (Hybridity) ويرى أنه « مفهوم متداول في الدراسات الأميركية اللاتينية، والكاريبية، والأقلية الأميركية، ودراسات ما بعد الاستعمار. يعتبر مصطلح " الهجين " عموما أنه يمثل أي شيء من أصل مختلط عناصر غير متماثلة.»[15] وعليه فهذا المصطلح بزغ فجره مع ظهور حركات/ قراءات ما بعد الاستعمار(الكولونيالية)؛ هذه القراءات امتلأت بالرغبة في تفكيك الآخر/ الغرب/ المستعمر، وفضح تحيزات خطابه، ونسف مقولة الأنقى، أو رسالة الرجل الأبيض؛ ومن ثم فرز الدلالات الثقافية التي تشكلت فيما بعد نتيجة التداخل الحاصل في محددات الهوية، تداخل أفرز منظومات ثقافية و اجتماعية اتسمت بالهجنة، وبالانصهار الثقافي.

لقد تحدّث "هومي. ك. بابا" في كتابه المهم(موقع الثقافة) عن قضية الهجنة والهوية الثقافية، مشيرا إلى « أن "الهجنة"، و"التجاذب"، و"الانشطار"، و"الاختلاف الثقافي".. تشق الهوية وتجعلها ضربا معقدا من التقاطع والتفاوض بين فضاءات مكانية وزمنيات تاريخية ومواقع للذات متعدّدة، على نحو يضعنا إزاء، بل في ماهو " ليس هذا ولا ذاك "، بل شيء آخر بجانبهما، وإزاء، بل في ماهو " أقل من واحد مزدوج".»[16] ولذلك يجب الأخذ بالحسبان، أن الهوية غدت مع "الهجنة" و"الاختلاف الثقافي" متشظية منفتحة على دلالات متعدّدة/ متباينة، ناهيك عن ذلك، فالهجنة عند "بابا"، حركة ترجمة تبقي أسئلة الهوية والانتماء مفتوحة دوما على التفاوض، وعلى أن تُطْرَح من جديد، ومن مكان آخر، أو زمن آخر، وتغدو سيرورات تكرارية استقصائية لا تعيّنات أوامرية ثابتة ومسبقة. إنه فنّ العيش في الفرجات الخلالية والسطوح البينية، بحيث لا يكون للانفتاح ذلك المعنى السطحي الذي يشير إلى عدم وجود انغلاق وإلى ذوبان الهوية والانتماء، بل يكون له ذلك المعنى الذيينطوي على المراجعة وإعادة النظر والبناء من جديد، في الحاضر الذي يمثّل عيشه فنّا قائما بذاته، فن يقيم الفارق بين التكرار واختلاف المماثل من جهة والتجانس والمجتمع من جهة أخرى، ويكشف أن هذين المفهومين الأخيرين جزء من عتاد تلك الثقافات التي تضطهد الآخرين.[17] الأمر الذي يقتضي

الإشارة إلى أن الهوية الوطنية في إطار الهجنة الثقافية، انشطرت إلى هويات متعدّدة ومختلفة، ومع بروز هذه الإشكالية، تطرح قضية أخرى هامة؛ ألا وهي قضية الأنا والآخر/ الغرب، الذي يفرض دائما سلطته على الأطراف باعتباره مركز المعرفة/ القوة/ السلطة، وهذا الاختلاف هو ما يجعل الأنا العربية مثلا تثبت ذاتها، انطلاقا من الآخر الغربي، اعتمادا على وسائل عديدة كالترجمة والهجرة والاستعمار.

وتفسيرا لذلك، يضيف - بابا - متحدثا عن هذه القضية فيقول:« إن مراجعة مفهوم "الهجنة" و"البينية" تنقاد بالضرورة إلى تناول قضية المنفي والمهاجر، حيث يُرى أن الاحتفاء بالهجنة يقضي إلى التغاضي عن الثقافة الوطنية وعن أبناء تلك الثقافة الذين يعيشون فيها عبر إعلاء متصل للمثقف المهاجر على أنه مالك الحقيقة كلّها ومجمع كل الثقافات، على نحو يحرره من الجنس والعرق والطبقة والموقع السياسي والثقافي المتعيّن.» [18] ومنه، فإنه يرى في الاحتفاء بالهجنة فيه تغاض عن الهوية الوطنية، ما قد يعني الانغلاق على الهوية والاتجاه نحو الانطواء على الثقافة الوطنية، مع ذلك لا يمكن نفي إمكانية الانفتاح على الثقافات الأخرى ومعرفتها، ومقارنتها لأجل التطور والتقدم، لذلك، نتصور أن العلاقة مع هذا الآخر / الغرب كانت مهزوزة دائما بفعل الحمولة التاريخية التي تلقي بضلالها القوية على هذه العلاقة، والأجدر هو«محاولة التخلص من الإحساس بمركزية الغرب، ونزع صفة العالمية والعلمية والمطلقية عن حضارته»،[19] مما قد يعيد الاعتبار لفكرة أن الغرب ليس معيارا وحيدا للمعرفة الكونية/ العالمية، بل هو مصدر من مصادرها فقط، فوجب علينا حينها تفعيل مفهوم «التحضر الإنساني، والإسهام في استخدام مقومات الحضارة وأسسها في شتى مجالات الحياة».[20]

تظل مشكلة العلاقة مع الآخر تلقي بثقلها على محددات الابداع داخل كل ثقافة، هذا لأن الثقافات تتمايز، فتصبو كل ثقافة إلى الانتشار على حساب ثقافة أخرى، لذلك، تتشكل الهجنة انطلاقا من الاحتكاك الذي يحدث بين محددات كل ثقافة،«فالوجود الإنساني الأصيل تتداخل فيه الهوية بالغيرية. فالآخر ضرورة أنطولوجية للذات تصل القيم الثقافية بالقيم الجمالية وتعلم فن العيش المشترك، والتفاعل مع الآخر» ،[21] ومن ثم، نتصور أن مفهوم الهجنة يتركب من أمزجة ثقافية مركبة تبتعد شيئا فشيئا عن نوازعها الوطنية التي تبقيها مشدودة نحو أصلها، لكن هذا المفهوم لابد أن يراعي خصوصية هذه الثقافات الوطنية التي لا ترفض مبدأ الحوارية والتشارك مع الآخر.

خاتمة:

من أهمّ النّتائج الّتي يمكن أن نستخلصها من هذه الورقة البحثيّة، ما يلي:

- أن الهويّة مصطلح قديم/ حديث، فقديم بعده مفهوم له جذوره الضاربة في القدم، وحديث كمصطلح مع ظهوره مع بزوغ حركيات العولمة؛ حيث بات متداخلا مع العديد من المجالات/ المعارف، وهو من المصطلحات التي لقيت اهتماما في الدراسات النقدية الحديثة، ورواجا كبيرا في الأبحاث الأكاديمية؛ كما أن هذا المصطلح قد شهد تعدد لوجهات النظر حوله،وهذا نظرا للتجاذبات الكبيرة الحاصلة بين المعارف ونماذجها اليوم؛ فقد انشطرت نظرية المعرفة المعاصرة إلى جزئياتتناقش أشكالا متناثرة من الفكر، وصارت لا تأبه إلى الكليات الكبرى للمعرفة، باعتبارنا نعيش اليوم عصر البينيات، وهو عصر يقدم نفسه كنموذج مرتهن للمعرفة بكل أشكالها المتباينة.
- أن الهوية تتحدد سماتها وخصائصها انطلاقا من تميزها عن الآخر، فكما قد تظهر الهوية، فهي تتخفى وتضمر. والحديث عن الهوية، إنما هو حديث عن الشخص بعينه وميزاته وخصوصيته، وأيضا الجماعة التي ينتمي لها هذا الشخص، كونه فرد من مجتمع يشاركه اللغة والدين والعادات والتقاليد والثقافة؛ التي هي تعبير عن ذاته وكيانه، واختلاف هذا الشخص عن الآخرين المخالفين له في هذه الخصائص هو في حد ذاته اثبات لهويته، ومن ثم، فتحديد مفهوم صلب للهوية يبقى مبحثا معقدا بالنظر إلى اختلاف المنظورات الفكرية والنفسية والاجتماعية التي تتناول هذا المفهوم، فيحاول كل منظور بوتقة مفهوم محدد للهوية انطلاقا من محدداته المعرفية، لذلك، تقترن الهوية بمباحث المعرفة المختلفة، وبطريقة ما في التناول.
- أن مفهوم الهجنة من المفاهيم التي انتشرت في الدراسات ما بعد الكولونيالية ومعها، في هذا الإطار نتصور أن التمازج الحاصل في الثقافات والمجموعات البشرية، بفعل رواسب الفكرة الكولونيالية، قد مكن لهذا المفهوم في أن يحتل حيزا معرفيا مهما، ويدخل بذلك في تركيبة هذه النماذج المعرفية المخصوصة بهذا المنحى، وصار يمكن تناول هذا المفهوم انطلاقا من النماذج المعرفية المفتوحة التي أفرزتها تيارات ما بعد الحداثة على تنوع أشكالها، ومفاهيمها، وهي نماذج لا تركن إلى حقيقة، ولا تستكين بنظام أو قالب جاهز، بل تسعى إلى تفكيك النماذج بشكل متواصل، رافضة فكرة النقاء المتعلقة بالأصل.

- لقد انشطر مفهوم الهوية الوطنية - في إطار الهجنة الثقافية- إلى هويات متعدّدة ومختلفة، وتطرح قضية أخرى هامة؛ ألا وهي قضية الأنا/ الذات والآخر (الغرب)، الذي يفرض دائما سلطته على البقية (العرب)، وهذه في الحقيقة فكرة لا زال العقل العربي لم يتخلص منها، فحضور الآخر / الغرب بات كثيفا على مستوى عصور كثيرة ومتباينة، ولعل هذا الحضور قد جعل لهذا العقل منظورا مخصوصا للرؤية من خلاله. فالآخر حاضر بقوة الثقافة، وحين نقول الثقافة فنحن نقصد إسهام هذا الآخر في سلم الثقافة العام، لكن الإشكالية تبدو أعمق بالنظر إلى طريقة رؤيتنا لهذا الآخر: هل هو مصدر من مصادر المعرفة فقط، أم معيار حقيقي لها؟.

قائمة المصادر والمراجع:

[1] بابا. هومي. ك: موقع الثقافة، تر: ثائر ديب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006م.

[2] عثمان المهدي: الهوية العربية في ظل العولمة، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2015م.

[3] لالاند أندريه: موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الأول A- G، تع: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط2، 2001م.

[4] مجمع اللغة العربية: المعجم الفلسفي، تص: إبراهيم مذكور، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، مصر، (د. ط)، 1983م.

[5] نيازى شهريار وأعرجي فاطمة: تمثلات الهجنة في رواية "ساق البامبو" لسعود السنعوسي قراءة على ضوء المبدأ الحواري، مجلة إضاءات نقدية (فصلية علمية)، السنة 08، ع32، كانون الأول 2018م.

[6] أمجد رمضان فحلة: التحديات المعاصرة على أمتنا(آثارها وسبل مواجهتها)، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تبسة، العدد 06، ديسمبر2012.

[7] رقية بلعيدي: سؤال كونية الثقافة مستقبل الإنسان عند طه عبد الرحمن، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تبسة، العدد 16، ديسمبر 2016.

[8] باين مايكل وآخرون: قاموس النظرية الثقافية والنقدية (الجزء الأول)، تر: هيثم غالب الناهي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2020م.

[9] بن جمعة بوشوشة: تجليّات أسئلة الهويّة في السرد الروائي المغاربي، الحياة الثقافية، مجلة شهرية، تعنى بالفكر والإبداع، محور العدد: سؤال الهوية بين الثابت والمتحول، وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، تونس، ع190، فيفري 2008م.

[10] بن عامر توفيق: الشباب والهويّة، الحياة الثقافية مجلة شهرية، تعنى بالفكر والإبداع محور العدد: سؤال الهوية بين الثابت والمتحول، وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، تونس، ع190، فيفري 2008م.

[11] تدو محمد وشيخي علي رضا: التهجين في الرواية الجزائرية المعاصرة على ضوء نظرية هومي بابا (رواية " كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك " لعمارة لخوص أنموذجا)، مجلة إضاءات نقدية (فصلية علمية)، السنة 10، ع37، آذار 2020م.

[12] حرب علي: حديث النهايات، فتوحات العولمة ومآزق الهوية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000م.

[13] 7سبيلا محمد والهرموزي نوح: موسوعة المفاهيم الأساسية في العلوم الإنسانية والفلسفة، منشورات المتوسط، العراق، بغداد، ط1، 2017م.

[14] السروي صالح: المثاقفة وسؤال الهوية، مساهمة في نظرية الأدب المقارن، دار الكُتبي للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2012م.

[15] سعيد جلال الدين: المصطلحات والشواهد الفلسفية، دار الجنوب للنشر، تونس، (د. ط)، 2004م.

التهميش والاقتباس

1 بوشوشة بن جمعة: تجليّات أسئلة الهويّة في السرد الروائي المغاربي، الحياة الثقافية مجلة شهرية، تعنى بالفكر والإبداع، محور العدد: سؤال الهوية بين الثابت والمتحول، وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، تونس، ع190، فيفري 2008م، ص: 12.

2 حمد تدو وعلي رضا شيخي: التهجين في الرواية الجزائرية المعاصرة على ضوء نظرية هومي بابا (رواية "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك " لعمارة لخوص أنموذجا)، مجلة إضاءات نقدية (فصلية علمية)، السنة 10، ع37، آذار 2020م، ص: 55.

3 أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الأول A- G، تع: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط2، 2001م، ص: 607.

4 مجمع اللغة العربية: المعجم الفلسفي، تص: إبراهيم مذكور، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، مصر، (د. ط)، 1983م، ص: 208.

5 محمد سبيلا ونوح الهرموزي: موسوعة المفاهيم الأساسية في العلوم الإنسانية والفلسفة، منشورات المتوسط، العراق، بغداد، ط1، 2017م، ص: 538.

6 جلال الدين سعيد: المصطلحات والشواهد الفلسفية، دار الجنوب للنشر، تونس، (د. ط)، 2004م، ص: 495.

7 المهدي عثمان: الهوية العربية في ظل العولمة، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2015م، ص: 75

8 المرجع نفسه،ص: 76.

9 علي حرب: حديث النهايات، فتوحات العولمة ومآزق الهوية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000م، ص، ص: 25، 26.

10 توفيق بن عامر: الشباب والهويّة، الحياة الثقافية مجلة شهرية، تعنى بالفكر والإبداع، محور العدد: سؤال الهوية بين الثابت والمتحول، وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، تونس، ع190، فيفري 2008م، ص: 5.

11 صالح السروي: المثاقفة وسؤال الهوية، مساهمة في نظرية الأدب المقارن، دار الكُتبي للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2012م، ص: 52.

[12] المرجع نفسه،ص: 53.

[13] شهريار نيازى وفاطمة أعرجي: تمثلات الهجنة في رواية " ساق البامبو" لسعود السنعوسي؛ قراءة على ضوء المبدأ الحواري، مجلة إضاءات نقدية (فصلية علمية)، السنة 08، ع32، كانون الأول 2018م، ص: 52.

[14] محمد تدو وعلي رضا شيخي: التهجين في الرواية الجزائرية المعاصرة على ضوء نظرية هومي بابا (رواية " كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك " لعمارة لخوص أنموذجا)، مرجع سابق، ص: 55.

[15] مايكل باين وآخرون: قاموس النظرية الثقافية والنقدية (الجزء الأول)، تر: هيثم غالب الناهي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2020م، ص: 492.

[16] هومي. ك. بابا: موقع الثقافة، تر: ثائر ديب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006م، ص: 12.

[17] المرجع نفسه، ص: 19.

[18] نفسه، ص: 27.

[19] أمجد رمضان فحلة: التحديات المعاصرة على أمتنا(آثارها وسبل مواجهتها)، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تبسة، العدد 06، ديسمبر2012، ص 429.

[20] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[21] رقية بلعيدي: سؤال كونية الثقافة مستقبل الإنسان عند طه عبد الرحمن، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تبسة، العدد 16، ديسمبر 2016، ص226